

استفسر المُفْتِشُ مِنْ فَلَاحٍ كَانَ الشَّارِعَ مِنَ الْمَدْرَسَةِ. كَانَتْ الشَّوَارِعُ مَلِيئَةً بِالْمَطَبَّاتِ وَالطَّيْنِ، وَتَسَرَّبَ إِلَيْهَا كَثِيرٌ مِنَ الْمِيَاهِ النَّازِحَةِ مِنَ الْبُيُوتِ الطَّيْنِيَّةِ. فَمَا كَانَ مِنَ الْمَفْتَشِ إِلَّا أَنْ سَارَ عَبْرَ دَرْبٍ رَطْبٍ بَيْنَ حَقْلَيْنِ. وَعَلَى بُعْدٍ بَصُرَ بِسَائِقٍ دَرَجَةٍ مُتَجِّهًا نَاحِيَتَهُ، وَمَا إِنْ اقْتَرَبَ مِنْهُ حَتَّى تَوَقَّفَ سَائِقُ الدَّرَجَةِ، وَنَزَلَ عَنْهَا قَبْلَ أَنْ يَقِفَ بِاحْتِرَامٍ لَهُ: - أَتَرَى شَجَرَةَ الشَّيْشَامِ تِلْكَ. قَالَ الدَّرَاجُ مُشِيرًا إِلَى شَجَرَةٍ بَعِيدَةٍ. وَغَمَرَتِ الْقُرُوبُ مَوْجَةً زَهْوٍ إِذْ إِنَّهُ قَدَّرَ لَهُ أَنْ يَمْدُ يَدَ الْعَوْنِ إِلَى سَيِّدٍ جَلِيلٍ مِنَ الْمَدِينَةِ، إِذْ تَخَيَّلَ نَفْسَهُ وَمُديرَ الْمَدْرَسَةِ وَطَلَّبَهَا أَوْ أَيَّ عَابِرِ قُرُوبٍ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ وَهُوَ بِصُحْبَةِ ذَلِكَ الْبَاشَا. لَقَدْ أَضْحَكَتْ عَمَلِيَّةُ الْبَحْثِ عَنِ الْمَدَارِسِ عَبْرَ الْقَطَاعَاتِ اسْتِزَافًا لِبَصِيرِهِ وَجَلَدِهِ، فِي الْمَدِينِ الْقَدْرَةِ وَالْأَقَالِيمِ النَّائِيَةِ وَالْمَرَكَزِ الْمُثْقَلَةِ بِالْدُخَانِ وَالْغُبَارِ، وَفِي الْقُرَى النَّائِيَةِ حَيْثُ الطَّرِيقَاتُ ضَبِيقَةٌ لَا يُمْكِنُ لِسَيَّارَتِهِ «الْجَيْبِ» أَنْ تَسِيرَ عَبْرَهَا. لَكِنَّ الْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ بِهَذِهِ السَّهُولَةِ، فَكُلُّ مَدْرَسَةٍ كَانَتْ مَنبَعٌ وَجَعٌ مَحْضٌ؛ مَا الَّذِي بَوَسَّعَهُ أَنْ يَعْمَلَهُ؛ تَوْصِيَّاتٌ وَتَوْصِيَّاتٌ تَرْفُضُهَا إِدَارَةُ التَّخْطِيطِ وَالتَّنْمِيَةِ تِلْكَ الَّتِي تُحْطَطُ قَلِيلٌ وَتُطَوَّرُ أَقَلُّ مِنَ الْقَلِيلِ! فِيمَا كَانَتْ الْحَشَرَاتُ تَطِيرُ فَوْقَهُ أَوْ تَزْحَفُ عَلَى سَطْحِهِ، وَعِنْدَمَا دَنِيَا مِنْهَا ارْتَفَعَتْ فَجَاءَ وَقَدْ عَلَا طَنِينُهَا. وَرَوَّحَ الْمُفْتِشُ الْمَدَارِسَ عَلَى وَجْهِهِ طَارِدًا إِيَّاهَا فِيمَا كَانَ الْفَلَحُ يَسِيرُ دَافِعًا دَرَاجَتَهُ بِخُطَوَاتٍ وَاسِعَةٍ رَشِيقَةٍ، وَأَجْرَاسُهَا تَهْتِكُ أَسْتَارَ السُّكُونِ. وَوَجَدَ الْمُفْتِشُ صُعُوبَةً فِي السَّيْرِ بِمَحَازَاتِهِ. وَمَرًّا بِحَقْلٍ ذَرَّةٍ فِي أَكْوَازِهَا لَمَّا تَزَلْ، وَخَلْفَ الْحَقْلِ سَمَقَتْ شَجَرَةُ «الشَّيْشَامِ»! كَانَتْ شَجَرَةً ظَلِيلَةً عَلَى حَاقَةِ حَقْلٍ حُرْتُ مُنْتَظَرًا طَوْرَ نَثْرِ الْبَذُورِ، قَبْلَ حَرْثِ الْأَرْضِ عَلَى أَقْلٍ تَقْدِيرٍ! - ثُمَّ؟ إِنْ الْمُعَلِّمُ يَنْقُلُهَا مَعَهُ، وَأَنْتَى ذَهَبَ ارْتَحَلَتْ مَعَهُ. أَنْتَ. فَظَلَّلَهُمَا بِيَدَيْهِ، وَنَظَرَ إِلَيْهِمَا: - أَيْنَ الْمَدْرَسَةُ يَا صَاحِبَ؟ هُنَا أَسْتَاذٌ مِنَ الْمَدِينَةِ لِيَرَاهَا. لَقَدْ رَأَيْتُهُمْ عَلَى مَا أَظُنُّ مُتَّجِهِينَ إِلَيْهِ هَذَا الصَّبَاحَ. كَانَ حَقْلُ الْقَصَبِ كَثِيفًا غَنِيًّا بِالْمَحْصُولِ، وَحَمْرَاءُ دَاكِنَةٍ، وَنَظَرًا حَوْلَهُمَا. بَاتَ الْأَمْرُ مُمِلًّا. - رُبَّمَا كَانَتْ فِي النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى! - اسْمَعْ! اذْهَبْ أَنْتَ وَتَحَرَّ عَنْ ذَلِكَ، وَعِنْدَمَا تَجِدُ الْمَدْرَسَةَ أَخْبِرْنِي. وَطَرَحَ الرَّيْفِيُّ دَرَجَتَهُ جَانِبًا، أَمَّا الْمُفْتِشُ الْمَدْرَسَةَ فَقَدْ جَلَسَ مُجِيلًا بَصَرَهُ فِي الْأَرْضِ السَّمْرَاءِ، وَقَدْ تَفَاوَتَتْ دَرَاجَاتُهُ وَظِلَالُهُ حَتَّى إِذَا مَا لَامَسَ طَرَفَ السَّمَاءِ كَانَ فِي أَوْهَاهَا. وَلَمْ تَكُنْ ثَمَّةَ غَيْمَةٍ فِي السَّمَاءِ. وَحَلَقَتْ بَعْضُ الْحِدَا عَالِيًا فِي كَسَلٍ فِيمَا عَبَرَتْ فَوْقَهُ عَصَافِيرُ جَذَلَى مُتَرْتِمَةً. لِأَبَدٍ وَأَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا فِيمَا يَخْتَصِرُ بِذَلِكَ! إِنَّهُ يَجْلِسُ فِي مَكْتَبِهِ، وَيَجْلِسُ فِي سَيَّارَتِهِ الْجَيْبِ، بِالْجُلُوسِ فِي الْكُرْسِيِّ الْوَحِيدِ فِي الْمَدَارِسِ الَّتِي يَزُورُهَا 5. - لَقَدْ وَجَدْتُهَا! عَلَى أَنَّ الْمُفْتِشَ الْمَدَارِسَ تَرَدَّدَ لَوْهَلَةٍ، قَدْ يَتَعَرَّضُ لِلسَّرَقَةِ فِي ذَلِكَ الْحَقْلِ الْكَثِيفِ وَلَا شَاهِدَ هُنَاكَ. وَرُؤُوسُ الْقَصَبِ الْخَضِرُ تُجَرِّحُ يَدَيْهِ وَوَجْهَهُ. وَثَنَى ذِرَاعَيْهِ فَوْقَ رَأْسِهِ، وَتَبِعَ السُّوقَ الْمَهْتَزَّةَ الْمُفْعَمَةَ بِالضَّجِيجِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى وَسْطِ الْحَقْلِ، وَهَنَّاكَ. وَفِي بُقْعَةٍ قُصَّتْ أَعْوَادُ الْقَصَبِ فِيهَا فَبَدَتْ مِلْسَاءً، لَمْ يَكُنْ تَحْتَهُمْ بِسَاطٌ يَقِيهِمْ صَلَابَةَ الْأَرْضِ. كَانَ الْهَدُوءُ يَلْفُهُمْ بِرْدَاءٍ يَبْعَثُ الرَّاحَةَ فِي النَفُوسِ، وَاهْتَزَّتِ الرُّؤُوسُ جَمَاعِيًّا فِي مُحَاوَلَةٍ لِحَفْظِ جَدَاوِلِ الضَّرْبِ فِيمَا انْحَنَى قِسْمٌ مِنْهُمْ عَلَى أُلُوحِهِمْ يَسْتَذَكِرُونَ مَا دُونَهَا فِيهَا. وَدُعِمَتْ أَطْرَافُهُ بِشَرَائِحَ حَدِيدِيَّةٍ تُبَتَّتْ فِيهِ بِمَسَامِيرَ، وَنَهَضَ مُعَلِّمُ الصَّبِيَّانِ فَجَاءَ وَقَدَّمَهُ تَبَحُّثٌ - وَقُوفٌ! صَاحَ الْمُرْشِدُ أَمْرًا بِالْإِنْجِلِيزِيَّةِ. وَهَبَّ التَّلَامِيذُ وَقُوفًا. مَاسَحِينَ مَا عَلِقَ بِظُهُورِهِمْ مِنْ غُبَارٍ. وَاسْتَغْرَقَ الْمُعَلِّمُ بَعْضَ الْوَقْتِ كَيْمَا يَتِمَّاكَ نَفْسُهُ فَقَدْ أَذْهَلَهُ حُضُورُ الْمُفْتِشِ، وَنَفَضَ الْغُبَارَ عَنِ الْكُرْسِيِّ الَّذِي تَرَأَسَ بِهِ طَلِبَتَهُ، صَاحَ الْمُعَلِّمُ! وَابْتَلَعَ الْمُعَلِّمُ رَيْقَهُ بِصَوْتٍ مَسْمُوعٍ: - نَعَمْ سَيِّدِي. - مِنَ الْمُفَرَّاتِ. قَالَ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمَ الْمُفْتِشَ مَجْمُوعَةً مِنَ الْكُتُبِ الْمُعْبَرَةِ الرَّثَّةِ كَانَتْ تَحْتَ رِجْلِ الْكُرْسِيِّ. طَالِبًا أَنْ يَقْرَأَ. - كَمْ فَصْلٌ لَدَيْكَ هُنَا؟ وَتَبَيَّنَ لِلْمُفْتِشِ أَنَّ مَا خَالَهُ مَجْمُوعَةٌ وَاحِدَةٌ كَانَتْ فِي الْوَاقِعِ سِتًّا! سَيِّدِي! قَالَ الْمُعَلِّمُ مُشِيرًا بَعْصَاهُ. قَالَ الْمُفْتِشُ أَمْرًا أَحَدَهُمْ. لَمْ يُخْطِئِ الْبَتَّةَ، وَبَدَأَ جَلِيًّا أَنَّ الْمُعَلِّمَ قَدْ اسْتَرَدَّ كَثِيرًا مِنْ نَفَقَتِهِ بِنَفْسِهِ تَبَعًا لَذَلِكَ. - اسْأَلْ فَصْلَ آخَرَ، وَطَلَبَ الْمُفْتِشُ مِنَ الْفَصْلِ الثَّانِي إِجْرَاءَ بَعْضِ عَمَلِيَّاتِ الْجَمْعِ فَأَتَمَّهَا مُعْظَمُهُمْ بِطَرِيقَةٍ صَحِيحَةٍ. وَقَرَأَ طَالِبَانِ مِنَ الْفَصْلِ الْأَوَّلِ الْحُرُوفَ الْأَبْجَدِيَّةَ دُونَ خَطَأٍ بِالطَّرِيقَةِ الْإِيقَاعِيَّةِ الَّتِي سَاعَدَتْ عَلَى إِجَادَتِهَا صَمًّا، أَوْ كَانَ ضَمْنُ الْمَقْرَرِ، وَهُوَ مَا يَشْكُ فِيهِ فَذَلِكَ أَرْوَعُ. - وَقُوفُ. أَمَّا الْمُعَلِّمُ فَتَبِعَهُ حَامِلٌ عَصَاهُ. سَتَحَدَّثُ الْقَرْيَةَ وَمَا جَاوَرَهَا عَنْ ذَلِكَ الْحَدَثِ أَيَّامًا عَدَّةً. لِمَ لَا تَفْعَلُ؟ - كُلُّ. لَا أَحَدٌ يَرْضَى أَنْ يُعْطَيْنَا غُرْفَةً وَاحِدَةً سَيِّدِي! إِنَّهُمْ لَا يَرِيدُونَ مَدْرَسَةً هُنَا، لَقَدْ أَوْضَحُوا ذَلِكَ مَرَّاتٍ عَدَّةً، إِذْ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَرُونَ فِي التَّعَلُّمِ مُضِيعَةً لَأَوْقَاتِ الْأَوْلَادِ الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ بِأَنْ عَلَيْهِمْ إِزْجَاءُ الْوَقْتِ فِي عَمَلٍ نَافِعٍ مَفِيدٍ بَدَلًا مِنَ الْهَوَى الدَّرَاسِيِّ! وَبِأَنَّهُ حَرِيٌّ بِهِمْ أَنْ يُسَاعِدُوا آبَاءَهُمْ فِي الْحَقُولِ وَرِعِي الْمَاشِيَةِ - لَكِنَّ السَّيِّدَ «شَادِرِي عَلِيَّ مُحَمَّدٍ» الزَّعِيمَ. هُوَ الْوَحِيدُ الَّذِي يَنْظُرُ إِلَيْنَا بِعَيْنِ التَّفَهُّمِ وَالْعُطْفِ بِاسَيِّدِي! إِنَّهُ يَدْرِكُ الْأَهَمِّيَّةَ الْقُصُوى لِلتَّعَلِيمِ، لَكِنَّهُ مَنَحَنَا ظِلَّ شَجَرَةِ الشَّيْشَامِ الَّتِي يَمْلِكُهَا لِنَتَفَيَّاهُ طَوَالَ الْمَوْسَمِ، حَتَّى حَلَّ أَوَانُ حَرْثِ أَرْضِهَا، - نَعَمْ، سَيِّدِي، سَيِّدِي، وَاسْتَغْرَقَ الْعَمَلُ مَنَا أَيَّامًا ثَلَاثَةً، حَتَّى طَلَبَةُ الْفَصْلِ الْأَوَّلِ عَمِلُوا مَعَنَا بِكُلِّ دَأْبٍ مِنَ الثَّامِنَةِ صَبَاحًا حَتَّى صَلَاةِ الْمَغْرَبِ، وَبَعْدَهَا كَانَ لَزَامًا أَنْ نَتَوَقَّفَ عَنِ الْعَمَلِ لِحُلُولِ الظَّلَامِ. لَقَدْ قَالَ السَّيِّدُ «شَادِرِي» إِنْ عَلَيْنَا أَنْ نُنَمِّنَ التَّعَلِيمَ، وَنَقْدِرَهُ، كَانَتْ ثَمَّةُ دُمُوعٍ تَتَرَقَّرُ فِي مُقْلَتَيْهِ، وَاعْتَمَرَ عَمَتُهُ ثَانِيَةً، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى الْبَعِيدِ مُشِيحًا بِبَصَرِهِ، وَشَرَعَا يَمْشِيَانِ جَنَبًا إِلَى جَنَبٍ؛ غُرْفَةً وَاحِدَةً فَقَطْ! فَإِنْ لَمْ تَكُنْ غُرْفَةً فَقَطْعَةً صَغِيرَةً مِنَ الْأَرْضِ وَسُوفَ نَبْنِيهَا. سَيِّدِي، وَبِأَنَّهُ لَا أَحَدٌ يَرِغُبُ فِي وَجُودِ مَدْرَسَةٍ هُنَا، هُنَاكَ أَرْضٌ فِي النَّاحِيَةِ الْمَهْجُورَةِ مِنَ

القرية سوف أكون سعيداً بإنشاء مدرسة هناك، لكنّ مُراقب المدارس كان يلوذ بالصمت! صمتٌ مُطبق رهيب! يكاد يرى الاقتراح يُرفضُ 9. هو واثقٌ من ذلك؛ إذ إنّ الحكومة لم تكن تسمحُ بتخصيص أرضٍ لمدرسة ابتدائية. فكيف سيتغير ذلك الآن؟ القانون هو القانون. قطعة أرضٍ صغيرة. كمّ من المعلمين كانوا بمثل إخلاص هذا المعلم وتفانيه! كمّ منهم كان يهتم بذلك؟ وكمّ منهم كان بإمكانه مواجهة لامبالاة كهذه؟ كلّ لم يستطع استرجاع حالة واحدة طيلة سنيّ عمله الثلاث.